

# أبو يوسف وكتاب الخراج

للمؤلف: الأستاذ أحمد المحمدي

مدرس بكلية دار العلوم

بجامعة فؤاد الأول

القاضي أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم ، جده الثالث سعد بن خبثة الأنصاري ، أحد صحابة الرسول صلوات الله عليه .

ولد بالكوفة سنة ثلاث عشرة ومائة ، من والدين فقيرين دفعاه إلى قصاب يدربه ، ولسكنه منذ حداثة سنه كان مولعاً بالاختلاف إلى رجال الحديث والفقهاء والأدب ، وكانت الكوفة في ذلك الحين تروج بعلماؤها وأدباؤها ولم تكن بغداد قد نافستها في ذلك ، حتى إذا كبر أخذ الحديث عن رجال شهرها بالحفظ والضبط : من أمثال أبي إسحاق الشيباني ، وسليمان التيمي ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وأخذ الفقه عن محمد بن أبي ليلى ، وأبي حنيفة ، ولم تقتصر دراسة أبي يوسف على الحديث والفقه ، بل كان يجيد غيرهما ، قال هلال بن يحيى : كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب ، وكان أقل علومه الفقه ، وهو قول - لاشك - مبالغ فيه ، ولسكنه يعطينا فكرة عن ثقافة أبي يوسف ، الذي تدرس . بالأدب : إلى جانب نبوغه في الفقه والتشريع ، وسنرى أثر هذه الثقافة في تأليفه . ولم يحفظ التاريخ من أسماء شيوخه في هذه المواد إلا محمد بن إسحاق المشهور بتأليفه في تاريخ المغازي ، وقد تكون شهرة أبي يوسف بالفقه ، وقيامه بأمر القضاء صرفت الناس عن الاهتمام بمعرفة أسانئذته في غير هذه المادة .

ولعل أعظم أسبابتها أثره في حياته وتوجيهها للإمام أبو حنيفة ثابت بن النعمان، فهو الأستاذ الذي أخذ بيده وأعانته حتى شق لنفسه طريق الحياة، ووصل إلى المجد العلمي وإلى أسمى مناصب الدولة بعد الوزارة، وهو منصب قاضي القضاة، ومن المرجح أنه اتصل بأستاذه، وهو حدث صغير السن، وأن أستاذه لمح فيه دلائل النجابة، فشجعه على طلب العلم، والاستمرار في الدرس، بل ربما كان قد ساعده بالمال، إذا صح ما رواه أبو بكر الخطيب البغدادي في كتابه: تاريخ بغداد، أن أبا يوسف قال: كنت أطلب الحديث والفقه، وأنا مقل رث الحال، فجاءني أبي يوماً، وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفت معه، فقال يا بني، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستمر وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عن كثير من الطلب، وأثرت طاعة أبي، ففقدني أبو حنيفة رضى الله عنه، وسأل عني، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيت به بعد تأخرى عنه، قال لي: ما شغلك عما؟ قلت: الشغل بالمعاش، وطاعة والدي، فجلست، فلما انصرف الناس دفع إلى صرة، وقال استمتع بها، فظرت، فإذا فيها مائة درهم، وقال لي: الزم الحلقة، وإذا فرغت هذه فأعلمني، فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلى مائة أخرى، ثم كان يتعدي، وما أعلمته بخلة قط، ولا أخبرته بنفادها حتى استغنيت وتمولت، ويقال إن أباه مات وهو صغير، وأن ذلك الحادث كان مع أمه.

أخذ أبو يوسف عن أبي حنيفة وعرف الأستاذ ما في تلميذه من ذكاء فناء وشجعه، وظل التلميذ والأستاذ متلازمين طول حياتهما، يضمّر التلميذ لأستاذه عظيم الحب والاحترام، ويضمّر الأستاذ لتلميذه عظيم الحب والتقدير، فأبو يوسف يحمل علم أستاذه ويبين وينشر مذهبه، ويوضح حججه في حياته وبعد مماته، ويذكر اسمه مقروناً بالتجلة والاعظام، ويؤلف الكتب كما يروى - في أصول الفقه، على مذهبه، حتى قال عمار بن أبي مالك: ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف، لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة

ولاحمد بن أبي ليلى ، ولاكنه هو الذى نشر قولهما وبث عليهما ، وكان أبو حنيفة من ناحيته يقدر هذا التلميذ الممتاز ، روى حماد بن أبي حنيفة قال : رأيت أبا حنيفة يوماً ، وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر ، وهما يتجادلان فى مسألة ، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلا فسره زفر ، ولا يقول زفر قولاً إلا فسره أبو يوسف إلى وقت الظهر ، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده ، فضرب بها فخذ زفر ، وقال : لا تطمع فى رياسة بلدة فيها أبو يوسف .

صلة الاحترام التى كانت بين هذين الإمامين تجعلنا نرفض فى صراحة تلك الرواية التى رواها ابن خلكان : أن أبا يوسف مضى لسمع المغازى ، وأخل بمجلس أبي حنيفة أياماً ، فلما أتاه قال له أبو حنيفة يا أبا يوسف ، من كان صاحب راية جالوت ، فقال له أبو يوسف : إنك إمام ، وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رءوس الملأ : أيما كان أولاً : وقعة بدر أو أحد فإنك لا تدري أيهما كان قبل الآخر ؟ فأمسك عنه .

نرفض تلك الرواية ؛ ونعتقد أنها موضوعة من أعداء الرجلين ، ومن العجب أنها منسوبة إلى الشافعى ، فأبو حنيفة أوسع عقلاً من أن ينسكرك على تلميذه طلبه لسيرة الرسول ومغازيه وهما من أعظم منابع التشريع ، وأبو يوسف كان أعظم أدباً من أن يشهر بأستاذه هذا التشهير الكاذب ، وقد رحل التلميذ وأستاذه إلى بغداد بعد إنشائها ، وعرض المنصور منصب القضاء على أبي حنيفة فأشار عليه أبو يوسف أن يقبل هذا المنصب ولكن أبا حنيفة أنى ، إثاراً منه للخلوص للعلم والدرس ، أما أبو يوسف فقد كان اتجاهه فى الحياة أن يتبع قواعد الدين فى إخلاص على ألا يحرم نفسه لذة الحياة ومتعتها وجاهاها ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : رءوس النعم أولها نعمة الاسلام التى لا تتم إلا بها ، والثانية نعمة العافية التى لا تطيب الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها ، وهو لذلك لا يجد غضاضة فى أن يجمع بين الدين والدنيا ، وسرى أنه وفق فى ذلك إلى أبعد مدى .

تتقف أبو يوسف وتبحر فى العلم ، فجلس للتدريس ببغداد ، وأخذ عنه

تلاميذ ناهون كان من بينهم محمد بن الحسن الشيباني راوى مذهب أبى حنيفة وأبى يوسف فى كتبه المبسوطة والزبادات والجامع الكبير والجامع الصغير والامام أحمد بن حنبل ، وأقبل عليه التلاميذ بعترفون من بحار علمه ، وارتقى كثير من الأئمة روايته فى الحديث ، ووطن غيرهم فى روايته ، قال محمد ابن جرير الطبرى : « وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأى عليه ، وتفريعه الفروع والأحكام مع صحبة السلطان وتقلده القضاء » ولكن هذه الأسباب التى من أجلها تحامى هؤلاء القوم رواية حديثه ليس لها فى واقع الأمر هذا السلطان القوى الذى يحول بيننا وبين الثقة بأحاديثه فهما غلب عليه الرأى ، ومهما صحب السلطان وتقلد القضاء ، فلن يكون ذلك كله - فى رأى - حافز له إلى أن ينسب إلى الرسول ما لم يقله ، ولكن لعل تحاميمهم الحديث عنه سببه ان غلبة الرأى عليه تجعله قد يعتمد على حديث ضعيف ، يجد فيه ما يؤيد رأيه ، وبوافق مذهبه ، فيستحسنه ، وسنرى عند دراسة كتاب الخراج ما قد يكون سببا من أسباب هذا التحامى .

مات أبو حنيفة عام مائة وخمسين وترك تلميذه أبى يوسف يذيع علمه ، وينقل مذهبه ، ولم يرو التاريخ أن أبى يوسف تقلد أمراً لأبى جعفر المنصور ، فلما تولى المهدي كان نجم أبى يوسف يرتفع واسمه يذيع ، فولاه القضاء سنة ستة وستين ومائة ، وظل فى منصب القضاء - على ما يظهر - حتى توفى المهدي ، وخلفه الهادي الذى لم يبق طويلاً فى الحكم ، وجاء الرشيد فأحل أبى يوسف مكاناً علياً . أجله وأكرمه ، وكان عنده حظياً مكيناً ، يجالسها ، ويأكل معه على مائده . فولاه القضاء وجعله قاضى القضاة ، وهو منصب لم يشغله أحد قبل أبى يوسف ، فلم يعرف فى تاريخ الخلفاء الراشدين ولا فى زمن بنى أمية وخلفاء العباسيين قبل الرشيد من أطلق عليه ذلك اللقب ولا من تولى هذا المنصب ، فلم يكن لقاضى عاصمة الخلافة فى تلك المصور ميذة على سائر القضاة ، وليس له رأى فى اختارهم ، حتى إذا جاء البرامكة فى أيام هرون الرشيد أدخلوا هذا النظام فى الدولة الاسلامية ،

نقلا عن نظام الفرس الذين كان لهم قاضى قضاء، جاء فى كتاب التاج المنسوب للجاحظ . ويقال إن سابور لما مات موبذ موبذان وصف له رجل يصلح لقضاء القضاء، فبكلمة موبذ موبذان فى لغة الفرس معناها قاضى القضاء .

وقد روى كثير من المؤرخين أن أبا يوسف هو أول من دعى بقاضى القضاء؛ قال المقرئى . فلما قام هرون الرشيد بالخلافة ولى القضاء أبابوسف يعقوب بن إبراهيم أحد أصحاب أبى خنيفة بعد سنة سبعين ومائة، فلم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضى أبو يوسف، وهذا المنصب يشبهه منصب وزير العدل فى عصرنا الحاضر .

وكان من أعمال أبى يوسف أن يمر على القضاء ويتعرف أحوالهم وسيرهم؛ ومن أظرف ما وقع له ما رواه ابن خلكان من كتاب اسمه اللقيف أن عبد الرحمن بن مسهر، كان قاضيا على المبارك وهى بليدة بين بغداد وواسط، فبلغه خروج الرشيد إلى البصرة، ومعه أبو يوسف القاضى فى الحراقة، فقال عبد الرحمن لأهل المبارك . أثنوا على عند أمير المؤمنين، وعند القاضى أبى يوسف، فأبوا عليه ذلك، فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلسانا أسود، وجاء إلى النهر، فلما أقبلت الحراقة، رفع صوته، وقال . نعم القاضى قاضينا، قاضى صدق، ثم مضى إلى مكان آخر، وقال مثل مقالته الأولى، فالتفت الرشيد إلى أبى يوسف وقال . يا يعقوب، هذا شر قاض فى الأرض، قاض فى موضع لا يثنى عليه إلا رجل واحد، فقال له أبو يوسف وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضى يثنى على نفسه، قال . فضحك هرون، وقال هذا أظرف الناس، هذا لا يعزل أبداً . وقد تكون هذه القصة من نسج الخيال، يراد بها السخرية من هذا القاضى المسكين .

اتصال أبى يوسف بالقضاء قبل هرون الرشيد هو ما عليه أكثر المؤرخين، وهو ما اعتمده البغدادى فى كتابه . تاريخ بغداد، وما يشتمن من أقوال ابن خلكان، وإن كان قد روى رواية أخرى يفهم منها أن أبابوسف

لم يل القضاء لغير الرشيد ، ولم يكن الرشيد يعرفه قبل ذلك ، قال ابن خلكان  
حكى علي بن الحسن التنوخي عن أبيه عن جده قال . كان سبب اتصال  
أبي يوسف بالرشيد أنه كان قد قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رضي الله  
عنه ، فحث بعض القواد في عيين ، فطلب فقيها يستفتيه . فحجى له بأبي يوسف  
فأضاه أنه لم يحث ، فوهب له دنانير ، وجعل له ذاراً بالقرب منه ، ودخل  
ذلك القائد يوماً على الرشيد ، فوجده مغموماً ، فسأله عن سبب غمه ، فقال  
شيء من أمر الذين قد أحزنني ، فاطلب لي فقيها كي أستفتيه . فجاءه بأبي يوسف  
قال أبو يوسف . فلما دخلت إلى عمر بين الدور ، رأيت فتى حسنا عليه أثر  
الملك ، وهو في حجرة محبوس ، فأومأ إلى بإصبعه مستغيثاً ، فلم أفهم منه  
إرادته ، وأدخلت إلى الرشيد فلما مثلت بين يديه ، سلمت ووقفت ، فقال  
ما اسمك ؟ فقلت . يعقوب ، أصاح الله أمير المؤمنين ، قال . ما تقول في  
إمام شاهد رجلا يزني ؟ هل يحده ؟ قلت لا ، حين قتلها سجد الرشيد ،  
فوقع لي أنه قد رأى بعض أهله على ذلك . وأن الذي أشار إلى بالاستغاثة  
هو الزاني . ثم قال الرشيد . من أين قلت هذا ، ؟ قلت ، لأن النبي ﷺ قال  
أدرءوا الحبوب بالشبهات ، وهذه شبهة يسقط الحد معها ، قال وأي شبهة  
مع المعاينة ؟ قلت . ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى ،  
والحدود لا تسكون بالعلم ، وليس لأحد أخذ حقه بهلمه ، فسجد مرة  
أخرى ، وأمر لي بمال جزيل ، وأن ألزم الدار ، فلما خرجت حتى جاءني  
هدية الفتى ، وهدية أمه ، وجماعته ، وصار ذلك أصلاً للنعمة ، ولزمت  
الدار ، فكان هذا الخادم يستفتيني ، وهذا يشاورني ، ولم يزل حال يقوى  
عند الرشيد حتى قلدني القضاء .

الحكم في مثل هذه القضية هو ما حكم به أبو يوسف ، فليس للإمام أن  
يحكم بعلمه ، بل لابد من شهادة الشهود ، ولما كان القصة التي أماننا منقوضة  
من أساسها ؛ فمن الثابت أن أبا يوسف ارتحل إلى بغداد مع أستاذه أبي حنيفة  
منذ أيام المنصور كما أسلفنا ، وقد أشار عليه بتولى القضاء ؛ ومن غير المعقول

أن يظل أبو يوسف ، وهو أنجب تلاميذ أبي حنيفة ، بل يقول عنه طلحة ابن محمد بن جعفر : إنه أفتح أهل عصره ، ولم يتقدمه أحد في زمانه ، وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر ، أقول : إنه من غير المعقول أن يظل هذا العالم الممتاز ، وقد قارب الستين من العمر مجهولاً من الرشيد ، والقصة في حوادثها بعيدة عن العقل ، فإنني أستبعد أن يرتكب إنسان هذا الإثم في مكان يظن أن الرشيد يخشاه ، ومن هذا الذي يصيد تحت أنف الأسد ؟!

هذه قصة موضوعة أشبه بأقاصيص ألف ليلة وليلة ، وقد يكون الفقهاء واضعوا تلك القصة ليبيّنوا الحكم فيها ، كما نضع نحن الأقاصيص للتلاميذ لأهداف معينة . وفي تاريخ أبي يوسف كثير من هذه القصص التي لا أشك في أنها مخترعة لا أساس لها .

تولى أبو يوسف قضاء القضاة ، فأحب أن يجعل للعلماء والقضاة سمعة خاصة تميزهم ليحفظ لهم وقارهم ، فيقال إنه غير لباس العلماء إلى هيئة خاصة ، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً لا تمييز فيه بين فرد وآخر ، وكان أبو يوسف شديد المحافظة على كرامة القضاة ، حتى ليتجنب ما يمس هذه الكرامة ، وما ينزل بها لدى الناس ، ذكر صاحب الأغاني في كتابه أن ابن جامع قدم من مكة على الرشيد ، وكان ابن جامع حسن السمات ، يلبس لباس الفقهاء ، فبينما هو واقف على باب يحيى بن خالد يلتبس الإذن عليه أقبل أبو يوسف القاضي ، فلما وقعت عينه على ابن جامع أخذ يحدّثه ، ويسأله عن أخبار مكة ، حتى إذا انصرف عنه وأخبر باسمه ومهنته ، جاء أبو يوسف في اليوم التالي ، ونظر إليه فتمسكه ، وعرف ابن جامع أنه قد أئذر به ، وكان ابن جامع جهورياً ، فرفع صوته قائلاً : يا أبا يوسف ، مالك تنحرف عني ؟ أي شيء وأنكرت ؟ قالوا لك : إني ابن جامع المغني ، فسكرت موافقتي لك ؟! أسألك عن مسألة ، ثم اصنع ماشئت ، ومال الناس فأقبلوا نحوهما يستمعون ، فقال : يا أبا يوسف ، لو أن أعرايا جلفها وقف بين يديك فأنشدك بحفاء وغلظة من لسانه قوله :

يا دارمية بالعلياء فالسند أقوت ، وطال عليها سالف الأمد  
أ كنت ترى بذلك بأسا ؟ قال : لا ، قال ابن جامع : فإن قلت أنا  
هكذا ، ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف ، رأيتني  
زدت فيه أو نقصت منه ؟ قال : عافاك الله ، أعفنا من ذلك ، قال : يا أبا يوسف  
أنت صاحب فتيا ، مازدته على أن حسنته بألفاظي فحسن في السماع ، ووصل  
إلى القلب ، ثم تنحى عنه ابن جامع .

لاريب عندي في أن الحق مع ابن جامع ، ولما سكن محافظة أبي يوسف  
على أبهة القضاء هو الذي دفعه إلى ما فعل ، مع أن أبا يوسف لم يكن من  
المتزمتين - كما سنرى - بل كان يكره التعصب ، واسع الصدر .

تاريخ أبي يوسف في القضاء تاريخ مشرق ، وقد أعانه على النبوغ فيه  
ذكاء مفرط ، وإطلاع واسع وثقافة ممتدة الجوانب واسعة الأطراف ،  
وسنرى عندما ندرس كتابه الخراج ما كان يعتمد عليه من الأدلة ، وما كان  
يسوقه منها لاستنباط أحكامه ، وسنرى إن كان مجتهداً مطلقاً أو مجتهداً في  
مذهب أبي حنيفة فحسب ، فإن دراسة هذا الكتاب سترينا خطة أبي يوسف  
مواهب أبو يوسف ومؤهلاته ونظراته إلى الحياة وقد تحدثنا عنها سابقاً ،  
فذكرنا أنه كان يجد المثل الأعلى في الجمع بين الدنيا والدين - دفعته إلى أن يصل إلى  
هذا المنصب الممتاز الذي جمع فيه الجاه العريض والثراء الضخم ، وقد انقسم الناس  
في أمره ، كما ينقسمون في أمر كل عظيم ، فمن قائل : إنه وصل إلى المجد بجدارة  
وكفاءة ، لم يفرط في أمر دين ، من أجل سلطان ولا وزير ، وهؤلاء هم  
الجم الغفير من المؤرخين ، وهناك أخرى ، إما حاسدة له على ما وصل إليه  
من المجد وبعد النفوذ ، وإما متزمتة ترى أن العالم الحق هو من ينصرف إلى  
العلم لا يبغى به غير وجه الله ، وقد غاله بعضهم في كراهية أبي يوسف وذمه ،  
حتى نفي أنه يصلح للفقهاء ، ونسبه إلى التصحيف والجهل ، وتجد في كتاب  
تاريخ بغداد كثيراً من هذه الآراء فيروى عن بعضهم أنه كان يقول : إني  
لا أستثقل مجلساً فيه ذكر أبي يوسف ، وقال رجل لابن المبارك : أيهما

أصدق : أبو يوسف أو محمد؟ قال : لا تقل : أيهما أصدق؟ قل : أيهما أكذب؟ وغالى بعضهم في ستة وست أستاذه أن حنيفة ، ولقد تورع ابن خلكان عن نقل هذه الآراء في كتابه . ولكن يظهر لي من روايات البغدادي أن الطائفة الناقدة لأبي يوسف في حياته كانت طائفة لها حسابها ، وقد ناله منها بعض الأذى .

ولعل أكبر ما جلب عليه التعصب ضده هو أخذه بالرأى والقياس ، وأعماله الفكر فيما بين يديه من النصوص ، ولكنه - كما سئرى - كان يلجأ إلى النص ، ويتخذ حجته في أكثر الأحيان ، ولا يخالفه مخالفة صريحة ، ويحب أصحاب الحديث ويميل إليهم ، وهو إلى جانب ذلك كله ، ما كان يصدر في رأيه إلا عن عقيدة إيمان ، وكان هذا الإيمان راسخا في قلبه ، لا تصف به نوازع الشهوات ، وإن مقدمة كتابه . الخراج ، والكتاب نفسه ليدلان على نفس مؤمنة حقا ، مخلصه في إيمانها ، وكل الروايات التي رويت عنه ، لا سيما في أخريات أيامه تدل على نفس مطمئنة لما قدمت في حياتها . قال محمد بن سماعة . سمعت أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول . اللهم إنك تعلم أني لم أجر في حكم حكمت به بين عبادك متعمداً ، ولقد اجتمعت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك ، وكل ما أشكل على جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان عندي والله من يعرف أمرك ، ولا يخرج عن الحق وهو يعطيه . كان أبو يوسف ذكياً يستطيع أن يستنبط من النص ما يستطيع سواه أن يستنبطه ، سأله مرة أحد رواة الحديث عن مسألة فأجابها فيها ، فقال له من أين جئت بهذا؟ فقال أبو يوسف : لحديثك الذي حدثتنا به أنت ثم ذكر له الحديث ، فقال له : يا يعقوب ، إنني لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك ، فما عرفت تأويله حتى الآن .

وكان إلى جانب ذكائه حاضر البديهة ، يستطيع أن يتخلص بسهولة من المآذق التي فيها ، روى أنه جرى . وإلى أني يوسف بمسلم قتل ذميا ، فأمر أن يقادبه ، وحدد يوماً لذلك ، وأمر بالقاتل فحبس ، فلما كان اليوم الذي حدده

حضر أولياء الذمي ، وجرى بالمسلم القاتل ، فلما هم أبو يوسف أن يقول :  
 قيدوه ، رأى رقعة قد سقطت فتناولها صاحب الرقاع ، وخنسها فقال له  
 أبو يوسف ما هذه التي خنسها ، فدفعها إليه فاذا فيها أبيات شعر ، قالها أحد  
 شعراء بغداد :

ياقاتل المسلم بالكافر جرت ، وما العادل كالجائر  
 يا من يبغداد وأطرافها من فقهاء الناس أو شاعر  
 جار على الدين أبو يوسف إذ يقتل المسلم بالكافر  
 فاسترجعوا ، وابكوا على دينكم واصطبروا فالأجر للصابر

فركب أبو يوسف إلى الرشيد وحدثه بالقصة وأراه الشعر ، فقال له  
 الرشيد : اذهب فاحتل ، فلما عاد أبو يوسف إلى داره ، وجاءه أولياء الذمي  
 يطالبونه بالقود ، قال لهم : ائتوني بشاهدين عدلين ، أن صاحبكم كان يودى  
 الجزية ، فصجزوا فلم يحكم أبو يوسف بالقود .

لست هنا في معرض حكم الدين ولا في صدد بيان المذاهب المختلفة في  
 هذه المسألة ، ولمكني أريد فقط أن أبين سرعة بديهة قاضي القضاة ، فهذه  
 البديهة السريعة استطاع أن يتخلص من ورطة ربما أدت إلى ثورة ببغداد .  
 وإن شهرته بهذه البديهة السريعة جعلت الناس ينسبون إليه قصصا نجد  
 بعضها مرويا في كتاب حضارة الاسلام في دار السلام ، وفي كتاب تاريخ  
 بغداد ووفيات الأعيان ، ومنها مالا يصدقه العقل ولا يطمئن إليه ، ولكن  
 حسبنا أن نعلم أن ذلك العصر هو عصر الرشيد الذي تفنن في تصويره أخيلة  
 القصص ، فاخترعوا ، ونسبوا إليه كل طريف عجيب ، ونال أبا يوسف  
 من ذلك حظ غير يسير .

كان أبو يوسف غير متمت في الدين ، فهو كثيراً ما يخيرك بين أمرين ،  
 إن فعلت واحداً منهما كنت غير آثم ، ولعل هذا من الأسباب التي حببت  
 فيه الخلفاء وقربته منهم ؛ غير أننا نقف وقفة عند هذا الخبر الذي رواه  
 أبو عبيد الله اليربوعي من أن زبيدة زوج الرشيد كتبت إلى أبي يوسف :

ما ترى في كذا؟ وأحب الأشياء إلى أن يكون الحق فيه كذا، فافتأها بما أحببت فبعثت إليه هدية ثمينة. نقف عند هذا الخبر؛ فقد يكون سلاحاً في أيدي أعدائه الذين يظنون أنه ما وصل إلى منصبه إلا بتبعه ما يرضاه الأمراء وتلبسه العلل والأسباب لتبرير ما يعملون.

نقف عند هذا الخبر، ولا نقطع بكذبه، ولكننا نؤكد أن موافقته زيدة - إن صح - لم تكن موافقة هوى، وليس ثم ما يمنع من أن يكون هوى زيدة متفقاً مع هوى الدين، ومن المؤكد أنه لو كان ثم خلاف بينهما لأثر أبو يوسف أن يميل إلى جانب الدين، كما ينطق بذلك كتاب الخراج.

إلى جانب فضل أبي يوسف وعلوه الملح أنه كان بخيلاً، فالروايات التي تروى عنه، تؤكد هذه الناحية من نواحي أخلاقه، وكان محباً للمال، حتى لیتهمه أعداؤه بأنه كان يعطى أموال اليتامى مضاربة، ويجعل الربح لنفسه. ظل أبو يوسف قاضياً للقضاة طول المدة التي عاشها في عهد هرون الرشيد، ولعله في هذه المدة لم ينقطع عن التدريس ببغداد حيناً، وبالبرصة حيناً آخر، وعاش سعيداً مكرماً حتى إذا كان يوم الخميس لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائة، صعدت روحه إلى خالقها، وترك من بعده ابنه يوسف الذي كان قاضياً بالجانب الغربي من بغداد في حياة أبيه وكتاب الخراج الذي ألفه لأمير المؤمنين هرون الرشيد.

(له بقية)